العودة

للقصصي الفرنسي مرمابسان

بقلم الأستاذ ناجي الحلباوي

كانت القرية الوديعة نائمة في حضن الوادي المنحدر نحو البحر ، وكانت أمواج البحر المتتابعة تلطم الشاطئ الرملي ثم ترتد عنه ، وكانت السحب البيضاء تجتاز مسرعة ، السماء الزرقاء الواسعة يحملها الهواء الناعش ... وكان أول ما يبدو للداخل إلى القرية ، دار صغيرة منفردة على قارعة الطريق يعرفها الناس باسم دار « مارتن لوفيسك » ، كان يأوي إليها أحد الصيادين المعروفين ، وهي ذات جُدر من طين ، وسقف من قش ، مزين بالسوسن الأزرق ، تحيطها حديقة واسعة ، تمتد كالبساط ، فيها أنواع الزروع : كالبصل والكرنب والبقدونس التراكم لدى الباب ، وكان يسترها عن الطريق سياج من الزروع الشائكة .

كان الرجل في صيده ، وكانت امرأته جالسة أمام عتبة الباب تحيك لزوجها شبكة صيد ، مستندة إلى الحائط الذي كان يعلوه نسيج العنكبوت ، وكانت ابنتها البالغة من العمر أربع عشرة سنة ، عند مدخل الحديقة ، مستلقية على كرسي من القش ، مائلة به إلى الوراء قليلاً ، ترقع ثياباً بالية حقيرة ، رقعت من قبل مائة مرة .

وكانت إلى جانبها فتاة تكبرها بعام ، تهز بين يديها طفلاً صغيراً ، لا تبدي حراكا ولا تفوه بكلمة ، وبجانبها طفلان يبلغان من العمر السنتين أو الثلاث ، استلقيا على الأرض ، وأخذا يحفران التراب بأيديهما الغضة ، ويتراشقان به فيصيب وجهيهما

كان الصمت يسود الجميع ، إلا الطفل الصغير الذي حاولوا عبثاً أن ينيموه ، فقد كان يبكي باستمرار بكاء ضعيفاً ، وكانت هناك هرة نائمة على النافذة ، وكانت عند أسفل الحائط وسادة من الزهر الأبيض يطن فوقها سرب من الذباب .

وعلى حين غرة صاحت البنت الصغيرة التي تحيط قرب الباب :

— ما ما ...

فأجابت الأم : ماذا تريدين ؟

قالت : ها هو ذا

وقد كن في جزع منذ الصباح ، ذلك لأن رجلاً غريباً كان يطوف حول الدار ، وهو رجل مسن تبدو عليه دلائل الفاقة والشقاء ، شاهدنه عند ما صعبن الأب إلى قاربه الذي يصيد فيه ، إذ كان جالساً فوق حجر قريباً من الدار ، ولدى عودتهن من الشاطئ شاهدنه أيضاً جالساً ينظر إلى الدار .

وكان يبدو عليه أنه مريض بائس ، فقد لبث ساعة دون أن تبدو منه حركة ، وما كاد يلاحظ أنهن ينظرن إليه بريبة ، حتى نهض وسار يجر رجله ،

ولكنه رئى بعد قليل عائداً بخطواته البطيئة ، ثم جلس فى مكان أبعد من مكانه الأول ، كأنما يريد أن يراقبهن .

أوجست البنات خيفة ، وزاد بالأم الجزع لأنها نشأت على الخوف ، ولأن زوجها لوفيسك لا يعود من البحر إلا عند هبوط الظلام

كان زوجها يدعى لوفيسك وهى تدعى مارتن ، ولدى زواجهما دعيا أسرة مارتن لوفيسك وذلك أنها تزوجت للمرة الأولى نوتياً يدعى مارتن ، كان يذهب كل صيف إلى الأرض الجديدة يصيد نوعاً خاصاً من السمك ، فرزقت منه بعد مضى سنتين على زواجهما بنتاً صغيرة كان عمرها ينيف على ستة أشهر عند ما اختفى مركب «الشقيقتين» ذو الساريات الثلاث الذى كان يقل زوجها ، وانتظرت أن يأتيها خبر عنه فلم تسمع عنه شيئاً ، ولم يعد أحد من البحارة الذين ركبوا معه فاعتبر مفقوداً ، وانتظرت مارتن زوجها ست سنوات تقوم بأود ابنتها بصعوبة ومشقة ؛ وإذ كانت باسلة وحسنة السمعة ، خطبها لنفسه أحد صيادى البلدة واسمه لوفيسك ، وكان أرمل يعيش مع ولد له ، فتزوجته ورزقت منه طفلين فى ثلاث سنوات ، وعاشا بكد وجهد ونصب لأن الخبز كان غالى الثمن ، فكانوا يأخذون ما لا بد لهم منه يشترونه بالنسيئة ، وكاد اللحم أن يكون غريباً عن الدار زمن العواصف والأنواء ، وكانت صحة الأطفال برغم ذلك حسنة حتى أنه كان يقال : إن أفراد أسرة مارتن لوفيسك شجعان ، فإن مارتن تتحمل الشاق ، ولوفيسك ليس له نظير فى الصيد

وكانت البنت جالسة على السياج فقالت :

— أكبر ظنى أنه يعرفنا ومن الممكن أن يكون بعض فقراء بلدة « إيبرفيل » أو بلدة « أوزيبوسك »

ولكن الأم كانت على تمام اليقين من أنه ليس من تلك الديار . وظل الرجل على حالته الأولى لم يحد بعينيه عن الدار ، فغضبت مارتن وأكسبها الخوف شجاعة ، فتناولت مجرفة وذهبت إليه وصاحت به قائلة :

— ماذا تفعل هنا ؟

فأجاب بصوت متهدج :

— إننى أتقيأ الظلال ، فهل أزعجتك ؟

قالت :

— لماذا تجول حول الدار كالمتجسس ؟

فأجابها بقوله :

ليس بودّى أن أوذى أحداً ، أفمن المحظور أن أجلس على قارعة الطريق ؟

وسمعت جوابه ، فلم تحر جواباً وعادت أدراجها إلى الدار

كان النهار يمضي ببطء ، واختفى الرجل وقت الظهيرة ، ثم عاد فى الساعة الخامسة تقريباً ، ولم يروه فى المساء قط

ولما عاد لوفيسك عند هبوط الظلام ، سردن على مسامعه ما رأين فقال :

— من الممكن أن يكون فاراً من أحد ، أو أن يكون أحد الأشقياء . . . ونام لوفيسك بلا انزعاج ، بينما كانت زوجته تفكر فى هذا الأفاق الذى نظر إليها بعينين مضحكتين

وفى الصباح كان الهواء شديداً ، فرأى النوتى

أنه لا يستطيع الإبحار ، وقرر أن يبقى فى الدار ليعين امرأته فى صنع الشبكة

وقرب الساعة التاسعة ، عادت بنت مارتن الكبرى ، وكانت قد ذهبت تشترى خبزاً ، عادت مسرعة وجلة مذعورة وصاحت قائلة :

— ماما ... ها هو ذا

فاضطربت الأم وشحب وجهها وقالت لزوجها :

— إذهب إليه يا لوفيسك ، وقل له لا يضايقنا هكذا ، فإن منظره يبعث فى نفسى شعوراً غريباً .

وكان لوفيسك صياداً كبيراً ذا لون أسمر ولحية حمراء وعينين زرقاوين وعنق قوى ، يرتدى الصوف دائماً خوفاً من الريح والمطر فى عرض البحر ، فخرج بهدوء واقترب من الأفاق ، وكانت الأم والبنات ينظرن إليه من بعيد بقلوب واجفة ، وبعد قليل من الزمن ، أبصرن الرجل المجهول ينهض فجاءة ويسير مع لوفيسك نحو الدار

فشدهت الأم وذهلت ، وعادت إلى الوراء ، فقال لها زوجها :

— إعطيه قطعة خبز وقدح نبيذ ، فإنه لم يأكل منذ أمس الأول . ودخل الرجلان الدار ، وتبعتهم المرأة وأولادها ، وجلس الأفاق وبدأ يأكل دون أن يرفع رأسه ، والكل ينظرون إليه

وقفت الأم تحدق فى وجهه ، واستندت ابنتاها إلى الباب ، حاملة إحداهما الطفل الصغير ، وعيناها لا تفارقانه ، وانقطع الطفلان الجالسان فوق رماد الموقد عن اللعب بالقدر السوداء كأنهما يريدان أن يتأملا أيضاً هذا الغريب

تناول لوفيسك كرسياً وقال يخاطبه :

— هل أنت قادم من مكان قصى ؟

— أتيت من هنا

— ما شيأ ؟ ويحالتك هذه ؟

— نعم ما شيأ لأننى لم أجد ما أركبه

— إلى أين أنت قادم ؟

— إلى هنا

— هل تعرف هنا أحداً ؟

— ربما

وصمت الرجلان ، وكان الغريب يأكل ببطء برغم جوعه ، ويتناول جرعة من النبيذ بعد كل لقمة من الخبز . كان وجهه شاحباً متمضناً ، تظهر عليه سيماء التعاسة والشقاء

وفجاءة قال له لوفيسك : ماذا تدعى ؟

فأجاب ولم يرفع رأسه :

— إسمى مارتن

فعرت الأم قشعريرة غريبة لدى سماعها هذا الاسم ، وخطت خطوة للأمام كأنها تريد أن ترى الغريب بوضوح ، ووقفت إزاءه متهدلة اليدين ، فاغرة الفم ، ولم يقل أحد شيئاً ، وأخيراً قال لوفيسك :

— هل أنت من هنا ؟

فقال : نعم . ثم رفع رأسه فالتقت عينا المرأة بعينيه ولبثتا عالقتين بها طويلاً دون أن تتحولا ، ثم صاحت الأم على حين غرة بصوت ضعيف مرتجف :

— هذا أنت يا زوجى ؟

فأجاب بهدوء وبطء :

— نعم ، هأنذا

ولم يتحرك ، بل راح يُكمل مضغ خبزه

وكان لوفيسك مذهولاً فقال بتلعثم :

— هذا أنت يا مارتن ؟

فقال الآخر بسذاجة وبساطة :

— أجل ، هأنذا

قال الزوج الثانى :

— من أين قدمت إذن ؟

فأجاب الأول :

— من جنوب إفريقية . غرق المركب فنجونا بقطعة خشب : بيكار وفاتينيل وأنا . ثم نزلنا بلاد المتوحشين الذين أسرونا اثنتى عشرة سنة ، وقد مات رفيقاى ، ثم أنقذنى أحد السياح الإنكليز وقادنى إلى هذه القرية ، وهأنذا هنا

فأخذت مارتن تجهش بالبكاء ، وخبأت وجهها فى مئزرها

وقال لوفيسك :

— ماذا نصنع الآن ؟

قال مارتن :

— أأنت زوجها ؟

أجاب لوفيسك :

— أجل . ونظر كلٌ منهما إلى الآخر ، ولم ينبسا ببنت شفة

وأخذ مارتن يتأمل الأطفال المحيطين به ، ثم أشار برأسه إلى البنتين وقال :

— أهما ابنتاى ؟

فقال لوفيسك :

— نعم ، إنهما ابنتاك

فلم ينهض ولم يعانقهما ، واكتفى بقوله :

— يا لله ! كم هما كبيرتان !

فقال لوفيسك :

— ماذا نصنع الآن ؟

فتلعثم مارتن ، ولم يدر ما يقول ، وعزم أخيراً فقال :

— سأفعل ما يعجبك ، إذ أنى لا أود أن أجلب لك السوء . إن وجودنا فى دار واحدة ضار لكلينا: أنا لى ابنتان ولك ثلاثة ، كل منا يأخذ أولاده . يبقيت الأم فهل هى لى أم لك ؟ أنا أرضى بحكمك ، ولكن الدار لى لأن والدى تركها لى ، ولأنى وُلدت فيها ، وهى مسجلة باسمي عند كاتب العدل

وكانت مارتن تبكى باستمرار ، وتخفى نشيجها وشهيقها فى نسيج المئزر الأزرق ، واقتربت البنتان الكبيرتان من أبيهما ، وتأملتاه باضطراب . وكان قد أتم تناول طعامه فقال بدوره :

— ماذا نصنع الآن ؟

ففكر لوفيسك وقال :

— نذهب إلى الكاهن ونرى ما يقول

فنهض مارتن . ولما اقترب من زوجته ألقت بنفسها على صدره منتحبةً وقالت :

— زوجى ! هاك أنت يا مارتن ، يا زوجى التعس وأخذته بين ذراعيها كما كانت تفعل فيما مضى وعادت بها الذكريات إلى سن العشرين عند تفتح زهرة حبها الأول . ونال هذا المشهد من نفس مارتن فقبّلها ، وراحت البنتان قرب المدخنة تصيحان لدى سماعهما بكاء أمهما ، وصاح الطفل الرضيع وهو فى ذراعى صغرى بنات مارتن بصوت حادّ ، ووقف

لوفيسك ينتظر ختام هذا المشهد ثم قال :

— هيا بنا

فترك مارتن زوجته ، ورأته الأم ينظر إلى ابنتيه فقالت لها : قبّلا أباكما

واقتربتا منه بعيون جامدة ، وكانتا ذاهلتين وخائفتين ، فقبل مارتن كلا على حدة قبلة قروية صاخبة

ولما رأى الطفل الصغير هذا الغريب يقترب منه أخذ يصيح صيحات حادة تنم عن اضطرابه وارتجافه ثم خرج الرجلان ، ولما مرا أمام مقهى التجار ، قال لوفيسك :

— أندخل فنشرب شيئاً ؟

قال مارتن : أفضل ذلك

ودخلا ، وجلسا فى المقهى الذى ما زال فارغاً من زواره ، وقال لوفيسك :

— إيه يا شيكو ، هات كأسين من النبيذ الجيد . هذا مارتن قد عاد ، وهو زوج امرأتى كما تعلم ، مارتن الذى ذهب فى مركب « الشقيقتين » ولم يعد

وأقبل صاحب المقهى يحمل ثلاث كؤوس بإحدى يديه وزجاجة بالأخرى ، واقترب منهما ، وكان رجلاً بطيئاً ، وافر الدم ، منتفخ الجسم من وفرة الشحم ، وقال بصوت هادئ : إذن ها أنت ذا قد عدت أخيراً يا مارتن

فأجاب مارتن : أجل ...

ناجى الطنطاوى

آمنوا لدى

شركة مصر لعموم التامينات

احدى مؤسسات بنك مصر

تستثمر جميع أموالها فى القطر المصرى

وكلاء فى جميع أنحاء القطر وفى السودان